المماليك البحرية

(١٢٥٠ م — ١٣٨٢ م)

ورث المماليك أسرة الأيوبيين فاتسعت الامبراطورية المصرية فى عهدهم حتى شملت السودان والحجاز والشام وبعض جزر البحرين الأبيض والأحمر. وفى طليعة سلاطينهم الظاهر بيبرس البندقدارى ـ ذلك القائد الماهر والسياسى الذكى والمصلح الحازم الذى قضى معظم سنى حكمه خارج مصر يعلى كلمتها ويهزم أعداءها . حصّن الاسكندرية وحمى مصب النيل ضد الغزوات الخارجية كما أعاد الأسطول المصرى سابق مجده . فبنى أربعين سفينة حربية واحتفظ بجيش منظم علاوة عن ربط ثغور البلاد ومدنها بشبكة من الطرق والدروب

لم يكن الظاهر بيبرس أول سلاطين المماليك البحرية . فقد كان أولهم « عز الدين أيبك التركمانى » وتاليهم إبنه وتالتهم الملك المظفر « قطز » الذى كان على يديه هزيمة التتار فى معركة « عين جالوت » بفلسطين بعد أن أبادوا الدولة العباسية ببغداد قبل زحفهم على الشام .

وتفصيل هذا انه فى أوائل عام ١٢٦٠ م أرسل هولاكو ملك التتار خطابا هدد فيه سلطان مصر إذا امتنع عن التسليم اليه . فكان رد « قطز » أنه أمر بقتل الرسل الذين حملوا الخطاب وعلقت رؤسهم على باب زويلة (المتولى) ثم جمع أمراءه للمشاورة فى الأمر وقد أحدق الخطر بمصر فقر القرار على القتال وألا ينتظروا تقدم التتار إلى الحدود المصرية .

خرج « قطز » السلطان الشاب على رأس جيش مصر من قلعة الجبل ومر بالصالحية ثم بلغ حدود فلسطين قبل أن يقوم التتار بتجميع قواتهم فاضطر قائدهم « بيدر » إلى التخلى عن غزة فاحتلها القائد بيبرس وتقدم متجنباً التلال ومتبعاً طريق الساحل إلى يافا وقيصرية إلى أن وصل جبل « الكرمل » جنوب حيفا وعسكر الجيش فى سهل ازدرائيلون قرب عكا التى كانت فى أيدى الصليبيين وكانت

خطة قطز وبيبرس فى هذه المعركة تقليداً رائعاً لأسلوب التتار أنفسهم فى القتال وعلى الأخص طريقة التظاهر بالفرار . وقد رأى هذان القائدان أن وجود المستنقعات حول بلدة بيسان سيضطر التتار للتحول فى تقدمهم صوب الجنوب الغربى . وانهم لابد نتيجة لذلك أن يصطدموا بالنصف الآخر من خطوط المصريين فدبروا خدعة باهرة تقضى بأن ينسحب الجزء الذى يشتبك به التتار أولا متظاهراً بالفرار تاركا ثغرة فى جبهة الجيش المصرى فيندفع فيها التتار اندفاعهم المعهود . وبعد أن يتورطوا فى الاختراق إلى مسافة كافية يطبق عليهم المصريون من جهات ثلاث (١)

بدأت المعركة فى صباح يوم الجمعة ٣ سبتمبر عام ١٢٦٠ م كما توقع قطز بهجوم عنيف قام به التتار على يسار الجبهة فتظاهر المشاة بالفرار والهزيمة فحدثت ثغرة اندفع فيها التتار بقوة فتركهم المصريون حتى وصلوا فيها مسافة مناسبة ثم أطبقوا عليهم وانقض السلطان بفرسانه المنتخبين من فرقة الملك الصالح ايان قرع الطبول كأنها الرعد القاصف

وفى أثناء ذلك عاد المتظاهرون بالفرار من المشاة واشتركوا فى القتال بعزم صادق . واستمرت المذبحة من الصباح حتى الظهر . وانتهت بهزيمة التتار وقتل قائدهم « كتبغا » وقام فرسان بيبرس على الأثر بمطاردة التتار حتى أخرجوهم من كل سوريا وفلسطين .

ولم تكن تلك الهزيمة هى الأخيرة للتتار على يد المصريين بل لقد اصطدمت بهم فى معارك شتى جحافل مصر وهزمتهم على أيدى بيبرس وقلاوون - وكان انتصار مصر فى « عين جالوت » منقذاً للمدنية الاسلامية وللعالم أجمع من فظائع التتار ودرساً للصليبيين الذين كانوا مازالوا قابعين فى بعض مدن الساحل السورى داخل قلاعهم .

لكن لم ينعم «قطز» طويلا بهذا الانتصار الحاسم ، فلم يكد يصل الى مصر

---

(١) معركة عين جالوت - للصاغ محمود محمد السرساوى - مجلة الجيش - المجلد السابع ص٢٤٣ - ٢٤٨ عام ١٩٤٤ - ١٩٤٥

الصالحية التي خرج منها على رأس جيشه الظافر حتى تمت مكيدة قتله بسيف القائد بيبرس ومماليكه وتركوه جثة هامدة على الأرض .

هكذا انتهت حياة بطل عظيم ثم خلفه على العرش الأمير بيبرس .

الظاهر بيبرس :

هزم بيبرس المغول في عدة مواقع أهمها في بيرة (عام ٦٧١ هـ — ١٢٧٨) وفي عودته قصد الكرك فقتل سبعة آلاف من أعدائه واستولى على العرش السلجوقي . ولم يكن المغول وحدهم الذين ذاقوا ألم السيف المصري فلقد أعلن بيبرس الحرب المقدسة لمدة عشر سنوات في فلسطين حيث تحالف الفرنجة مع المغول واستولى على قيصرية وعرصوف (٦٤٣ هـ — ١٢٦٥ م) وأذل مدافعيها من المسيحيين وصمم بيبرس على قطع علاقة الصليبيين بتلك البلاد نهائياً فاستولى على يافا عام ١٢٧٣ م وسمت بلفورت وأنطاكيا عاصمة سوريا الشمالية التي أحرقت عن آخرها ثم وضع يده على حصون الصليبيين وقلاعهم . وفي أيامه استولى الأسطول المصري على قبرص

وقبل وفاة بيبرس كانت أوامره تصدر وتطاع من بير امواس والفرات إلى جنوب بلاد العرب حتى شلال النيل الرابع وكانت المدن المقدسة (مكة والمدينة وبيت المقدس) في قبضته . كما وضع يده على سواكن وغيرها على شاطىء البحر الأحمر . وخضع له عرب الصحراء وبربرة الشمال ومغول العلجة وأصبح « خانهم » حليفاً له وأرسل ابنته للزواج منه وتبادل الظاهر مفوضية مع الامبراطورية الشرقية وشيّد مسجداً في الآستانة واتصلت تجارة المصريين بصقلية وأسبانيا وفرنسا . وما زال لبيبرس الذكر الحسن عندنا . فقصته يرويها الشعراء في مجالس أهل البلاد . ومن المساجد التي شيّدها مسجده الكبير بالحسينية والمعروف بجامع الظاهر . وبوفاته حدثت منازعات بشأن تولي الملك انتهت بتولي السلطان « قلاون » سنة ١٢٧٩ م فبقي الملك في بيته أكثر من مائة سنة . ومن مآثره أنه هزم التتار في معركة فاصلة في حمص . وكانوا يتأهبون للاغارة على مصر مرة أخرى . ومن

مآثره أيضا إنشاؤه البيمارستان الكبير والمعروف الآن بمستشفى قلاوون بالنحاسين وبجانبه المدرسة والقبة التى دفن بها — وخلفه ابنه « الأشرف خليل » وفى عهده سقطت عكاء فى أيدى المسلمين وتبعتها بقية مدن الشام الساحلية وقضى على ما كان باقياً من حكم الصليبيين هناك (١٢٩١ م)

وقد هزم التتار أيضاً « الناصر » بن قلاون فى معركة فاصلة قرب دمشق (١٣٠٣ م) فكانت هذه رابع مرة صد فيها التتار عن الديار المصرية .

استطاع هؤلاء السلاطين البواسل أن يجعلوا بحر الروم بحيرة مصرية وصدوا هجوم التتار وجعلوا منهم حلفاء وقضوا نهائياً على الصليبيين . ومهما يكن من شىء فان جهود الغزو والفتح والنضال لم تشغلهم عن ترقية أحوال مصر ، فأقاموا المدارس والمشافى والقناطر والمساجد . وخلدوا ذكراهم المجيدة فى كل مكان وجعلوا من القاهرة أجمل مدن الشرق بما أدخلوه عليها من جديد فى طرز العمارة والفنون .

وكفى أن نركز من مآثرهم الخالدة فى القاهرة مدرسة الناصر قلاوون بالنحاسين والمدرسة الجاولية . وخانقاه بيبرس الجاشنكير ومسجد السلطان الناصر محمد بالقلعة وقصر بشتاك وجامع المارداني ومسجد السلطان حسن بميدان صلاح الدين .

وكان آخر سلاطين المماليك البحرية الصالح حاجى بن الأشرف شعبان الذى انقرضت فى أيامه هذه الدولة وقامت على أنقاضها أسرة المماليك الشراكسة عام ١٣٨٢ م .